البلاء لكي يتضرعوا ويتذللوا ويتوبوا الى الله لان البلاء يلين القلوب فلم يتعظوا بذلك
ولم ينزجروا فلما نسوا ما ذكروا به من البأساء والضراء اي تركوا الاتعاظ بها ولم ينزجروا عما هم
فيه من الكفر والتكذيب فتحنا عليهم ابواب كل شيء من الصحة والسعة وانواع النعم فان
من يتذلل وينقاد لغيره قد يطيعه خوفا من قهره وعقابه وقد يطيعه حياء من فضله
واستجلابا لمزيد عطائه فلما لم ينفعهم شيء من ذلك اخذناهم بغتة فاذا هم آيسون متحسرون
فقطع دابرهم واستاصلوا بحيث لم ينج منهم احد قوله معناه نفي تضرعهم في وقت مجيء البأس
والشدة مع قيام ما يدعوهم اليه فان حرف التحضيض اذا دخل على الماضي يكون للتوبيخ واللوم
على ترك الفعل مع قيام الداعي اليه وانتفاء العذر في تركه فلذلك اخرج الكلام مخرج التحضيض
والمعنى لم يكن لهم عذر في ترك التضرع الا قسوة قلوبهم وشدة شكيمتهم في عنادهم واعجابهم
باعمالهم التي زينها لهم الشيطان قوله استدراك على المعنى لا على اللفظ لان قوله قست
قلوبهم جملة خبرية معطوفة على جملة التحضيض وهي جملة انشائية لا يصح ان يعطف عليها الخبرية
لكمال الانقطاع بينهما الا ان جملة التحضيض لما كان معناها نفي تضرعهم بمنزلة ان يقال انهم لم يتضرعوا
مع قيام ما يدعوهم الى الله وكان التضرع من لين القلب كان معنى لم يتضرعوا لم يلينوا فاستدرك
عنه بقوله ولكن قست قلوبهم كانه قيل لما جاءهم بأسنا لم يتضرعوا ولم يلينوا ولكن قست قلوبهم
قوله مراوحة عليهم بين نوبتي الضراء والسراء المراوحة في العملين ان يعمل هذا
مرة وذاك اخرى اخذهم اولا بالبأساء والضراء لكي يتضرعوا ثم انهم لما لم يتعظوا بذلك نقلهم الله
تعالى من البأساء والضراء الى الراحة والرخاء وانواع الآلاء والنعماء فلم ينتفعوا به ايضا
وهذا كما يفعله الاب المشفق بولده يخاشنه تارة ويلاطفه اخرى طلبا للصلاح
والزاما للحجة عليه وازاحة للعلة عنه قوله او مكرا بهم عطف على قوله مراوحة عليهم فيكون
علة ثانية لقوله فتحنا عليهم ابواب كل شيء وهو فتح استدراج ومكر روي عن الحسن
البصري رح انه قال من وسع عليه فلم ير انه يمكر به فلا رأي له ومن قتر عليه فلم ير انه ينظر
له ثم قرأ هذه الآية فلما نسوا ما ذكروا به مكر بالقوم ورب الكعبة اعطوا حاجتهم ثم اخذوا
وروي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال اذا رأيت الله يعطي العبد ما يحب وهو مقيم على معصيته

فانما ذلك منه استدراج ثم تلى هذه الآية قوله المبلسون اي صاروا متحيرين
بحالهم وهو اشارة الى ان المراد بالفرح هنا فرح البطر كفرح قارون بما اصابه من الدنيا
واذا في قوله تعالى فاذا هم مبلسون للمفاجاة وهو ظرف مكان عند سيبويه وظرف زمان عند جماعة و
الكوفيين الى انها حرف وناصبها ما بعدها من كونها ظرفا خبرا للمبتدأ اي المبلسون في مكان اقامتهم
او في زمانها والابلاس في اللغة بمعنى الياس من النجاة عند ورود الهلكة ويكون بمعنى انقطاع الحجة ويكون بمعنى
الحيرة وقال الزجاج المبلس الشديد الحسرة الحزين قال اهل المعاني انما اخذوا في حال الراحة
والرخاء ليكون اشد لتحسرهم على ما فاتهم من حال السلامة والسعة قوله اي اخرهم الذي يدبرهم من خلفه
وقطع دابر القوم انما يكون بقطع جميعهم بحيث لا يبقى منهم احد حمد الله تعالى نفسه على ان قطع دابرهم
لان ذلك نعمة على الرسل الذين كذبوهم بل على من في الارض جميعا حيث يتخلصون من شؤم عقائدهم
واعمالهم وفيه تعليم لاهل الطاعة ان يحمدوا الله تعالى على هلاك الظالمين المعاندين
ثم انه تعالى احتج على وجوب التوحيد وبطلان الشرك بوجه آخر فقال قل ارأيتم ان اخذ الله
سمعكم الآية والمعنى اخبروني ايها المشركون سمعكم وابصاركم ان اخذها الله واذهبها من اله
غير الله يأتيكم به ان المفعول الاول لقوله ارأيتم محذوف تقديره ارأيتم سمعكم وابصاركم ان اخذها
الله والجملة الاستفهامية في موضع المفعول الثاني فكانه قيل ان اخذها ايأتيكم بها الشركاء
قوله من اله جملة اسمية من مبتدأ وخبر ومن استفهامية وغير الله صفة لاله ويأتيكم به صفة
ثانية وضمير به يرجع الى جميع ما ذكر قبله وافرد لتنزيله منزلة اسم الاشارة كانه قيل من اله غير الله
يأتيكم بذلك والتأويل تلك المذكورات بالذي اخذ وختم عليه او باحدها لا على التعيين الآية
احتجاج آخر على المشركين بانه ان ذهب الله تعالى واوقع منكم ايها المشركون اشرف اعضائكم التي
هي محل القوة السامعة والباصرة والقلب الذي هو محل الحيرة والعقل والعلم وهي النعمة التي يختل
بزوالها مصالح الدنيا والدين هل تجدون الها غير الله يأتيكم به ومن المعلوم انه لا يقدر عليه احد
غير الله فهو المستحق للعبادة والتعظيم فمن اين تشركون به ما لا يقدر على شيء سبحانه وتعالى عما يشركون
قوله انظر كيف نصرف الآيات اي نكرر الآيات الدالة على التوحيد والنبوة ونبين اصولها الحجج
المختلفة المكاثرة بحيث يكون كل واحد منها يقوي ما قبلها في الدلالة الى المقصود فانا نكررها تارة

Copyright © King Saud University